

دانييل أورنستين

الإرتباط: كلية الهندسة المعمارية وتخطيط المدن في التخنيون، المعهد التقني لإسرائيل، ومعهد واطسون للسياسة الدولية في جامعة براون، الولايات المتحدة.

العقبة، الأردن. لم يكن المشهد في قاعة المؤتمرات في الفندق كما هو معتاد في أمور الشرق الأوسط السياسية. هنا يجلس أخصائيو إسرائيليون ولبنانيون وسعوديون وإسرائيليون في نفس الهيئة، يتشاركون الخبرات، ويصفون بصبر لبعضهم البعض، بل ويبدون بين الفينة والأخرى تعاطفهم. لقد تجمع هؤلاء، مع مئات آخرين مثلهم - علماء شرق أوسطيين، ومحترفين حكوميين وناشطين في أمور البيئة - في أول اجتماع لشبكة التنوع البيئي في الشرق الأوسط ليتناقشوا في هدف مشترك: بقاء نبات وحيوان المنطقة.

وكما هو الحال على المستوى العالمي؛ فإن المستقبل لا يبدو جيدا لأندر الحيوانات والنباتات في الشرق الأوسط. وبينما كان أغلب المشاركين قد حضروا المؤتمر لصقل أساليبهم في وضع قوائم الجرد للتنوع البيئي للمنطقة - لتحديد وتعداد تلك الحيوانات والنباتات الموجودة فيها - فقد كان التيار التحتي طيلة المؤتمر هو الشعور بأن هذه هي الفرصة الأخيرة لمشاهدة ومعرفة العديد من مخلوقات كوكب الأرض. كانت قضايا الانقراض تلقي بثقلها على أذهان العديد من المشاركين.

لعل أحدا لم يعبر عن هذا الشعور أفضل من عالم بيئي من دبي، الإمارات العربية المتحدة - موطن بعض أعلى البنايات في العالم والأسواق المالية النامية والمنتجعات الفاخرة. لقد وصف معدلات التطوير على شاطئ الخليج العربي بأنها قد بلغت حدا من التسارع لا يتيح له ولزملائه فرصة لأرشفة التنوع البيئي المحلي إلا من خلال جمع البيانات البيئية على مستوى المعلومات الأساسية فقط قبل أن تتدثر موائها. إن حماية الأجناس تحت حجم الضغوطات كهذا هو أمر شبه مستحيل؛ وليس للعلماء إلا أن يأملوا بالتعلم عنها بعد اختفائها.

لم تكن الصراعات الإقليمية - في العراق ولبنان وإسرائيل وفلسطين وقبرص وجنوب شرق تركيا - المحور الجلي لأي من المحادثات، لكن تأثيرها السلبي على التنوع البيئي وجد سبيله إلى الكثير مما قيل. وصف عالم بيئي من قبرص الصيد غير المرخص على طول الحدود بين الجزأين التركي واليوناني في قبرص، وقال عالم طيور عراقي أنه بينما يحتاج لعينه لتحديد أصناف الطير فإنه يحتاج لعينين إضافيتين زوج آخر في مؤخرة رأسه لتفادي إطلاق النار عليه. وفي رد لعالم نبات لبناني أصدر مؤخرا كتابا عن الأزهار النادرة في وطنه على سؤال زميل إسرائيلي عن سبب عدم قيام دولته بإصدار قوانين لحماية الأزهار البرية كما تفعل إسرائيل، قال عالم النبات بجفاف «إن حكومتي مشغولة بالتعامل مع أمور أخرى».



صورة ١: اجتماع تطوير الحياة الفطرية (©Declan O'Donovan)

كان الفقر والجريمة والتلوث والاستهلاك الجائر ضمن مواضيع مدار البحث الكامنة الأخرى في العديد من المحاضرات. وصف عالم بيئة عراقي الخسارة المأساوية لأهوار المنطقة الجنوبية لبلده بسبب التأثير المشترك للجفاف وإقامة السدود، كما شارك مدير محمية عماني بعرض لصور للذبح والصيد غير القانوني للمها العربي، لكنه لم يستطع (أو لعله لم يشأ ٩) أن يفصح للمهتمين من الحضور عن يرتكب ذلك سوى قوله «إنها مجموعة كبيرة وجيدة التنظيم». أما تدهور وضع الشعب المرجانية في البحر الأحمر في خليج العقبة فقد عزاه عالم أحياء بحرية إسرائيلي إلى تشكيلة حقيقية من المسببات طيلة 50 عاما منها إطلاق أنواع غريبة في مياه نقل الموازنة للسفن، والتسريبات الكيماوية والنפטية، وفضلات مزارع الأسماك، والاختناق بالرمال المجلوبة للشواطئ السياحية، والتلف الذي يسببه جمع السياح للمرجان، وكذلك الدهس، وإلقاء مراسي السفن في الشعب.

لكن، وعلى الرغم من تجمع الخبرات في قاعات المؤتمرات في الفندق - ولعلها ضمت أفضل علماء الطبيعة والبيئة في المنطقة - لم يكن هناك أدلة واضحة على وجود حلول قابلة للتطبيق. في الشرق الأوسط، والذي تعتبر العديد من المنظمات العالمية للبيئة عدة مناطق فيه «مواقع ساخنة للتنوع البيئي»، فإن النبات والحيوان مهدد، وبينما أنه بإمكان هؤلاء العلماء تبيان تدهور الأنواع، إلا أنه ليس بمقدورهم إبقاؤه.

إن جذور أسباب أزمة التنوع البيئي لدينا، كأسباب العديد من المشاكل البيئية عبر العالم، تقع في طائفة من مشاكل واسعة وشاملة: الحروب، والتدريب العسكري، وسباقات التسلح في الشرق الأوسط التي لا تؤدي بشكل مباشر إلى تهجر البيئة الطبيعية فحسب، ولكنها تقود أيضا بخبث إلى إلهائنا وتحويل مواردها الاقتصادية والسياسية المحدودة عن العناية بتراثنا الطبيعي بل والبشر أيضا. إن عقيدة النمو الاقتصادي تطحن نظاما بيئيا بعد الآخر، وتقضي معهم على بعض من أجمل ما تقدمه الأرض للناس من الكنوز الطبيعية ومصادر الدهشة والاعتزاز.

تتطلب الحلول خبرات والتزام مجموعة عالمية أوسع تضم الساسة وواضعي الخطط العامة والقادة الاقتصاديين والناشطين والعلماء وغيرهم من أعضاء المجتمع المدني. إن المشاكل ليست عسيرة على الحل، لكن الوقت يدهمنا. إن من العلامات المشجعة إدراك ضمن أعداد متزايدة في الحركة البيئية أن السلام والعدالة الاجتماعية والاقتصادية هي متطلبات الاستدامة البيئية الحقيقية، كما أن اجتماع 500 عالم من الشرق الأوسط المضطرب سياسيا لتدارس تعاوني للتحديات البيئية الإقليمية والعالمية هو علامة مشجعة أخرى. دعنا نأمل، لصالحنا وصالح الأنواع الأخرى في هذا الكوكب، بأن قادتنا سيفعلون نفس الشيء.

هذا المقال يعاد نشره مع الشكر من نشرة بروفيدنس جورنال. دانييل أورنستين هو زميل ما بعد شهادة الدكتوراه في كلية الهندسة المعمارية وتخطيط المدن في التخنيون، المعهد التقني لإسرائيل، وزميل زائر في معهد واطسون للسياسة الدولية في جامعة براون.